جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك
— ١٣ —

كتب إليّ أحدُ المتخرجين في كلية الآداب يقول: «ألا ترى أن إصرارك على تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين فيه تجريحٌ لكلية الآداب، وأنت أقسمتَ على الوفاء لكلية الآداب»؟

وأقول إني ما نسيتُ ذلك القَسم العظيم، وسأظل طول دهري وفيًّا لكلية الآداب

ولكن كيف يصح القول بأن تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين ينافي الوفاء لكلية الآداب؟

إن كلية الآداب لها رسالة أدبية وفلسفية، وهي تروض أبناءها على الفناء في الحق، وتنكر عليهم أن يكونوا أبواقاً تذيع أهواء الجاهلين، فمن الوفاء لتلك الكلية أن نراقب ما ينشر باسمها من المباحث والآراء، وأن نتعقب أساتذتها بالنقد حين يقضي الواجب بلا ظلم ولا إسراف

وقد استبحتُ قبل اليوم نقد آراء الدكتور طه حسين وكان عميداً لكلية الآداب، فلم يقل أحدٌ إن ذلك النقد كان تجريحاً لتلك الكلية وخروجاً على يمين الوفاء

وهل خرج الدكتور عبد الوهاب عزام على كلية الآداب حين أنكر آراء الأستاذ أحمد أمين؟

وماذا تريد منا كلية الآداب؟

أتريد أن نطوف بأحجارها طواف الخشوع فنرى كل صدًى يرنّ في حُجُراتها وغُرُفاتها وحياً نزل من السماء؟

إن تقاليد تلك الكلية قامت على أساس الفتوّة، وقد شرعت النضال والعراك حول المذاهب والآراء، فليعرف بعض الأساتذة هناك أن الوشائج الصحيحة بيننا وبينهم ترجع إلى أصل أصيل من تقاليد تلك الكلية، هو الثورة على الأخطاء والأغلاط والجهالات

ونحن ماضون في سبيل النقد الأدبي بجرأة وصراحة رعايةً للحق، ورعاية لتقاليد تلك الكلية الغالية، جعلها الله إلى الأبد مثابةً لحرية الرأي والعقل، ونجّاها من عادية الأهواء!

* * *

وأرجع إلى الموضوع فأقول:

رأى القارىء كيف أخطأ أحمد أمين حين وازنَ بين الوثنية العربية والوثنية اليونانية، لأن الموازنة لا تصح إلا بين أثرين، وقد وُئدت الوثنية العربية وعاشت الوثنية اليونانية، فالموازنة بينهما لا تجوز إلا في ذهن من يستجيز الحكم على المجهول

وأنا مع ذلك أعترف بأن الوثنية العربية بقيت منها أشياء، فقد صح أن بعض العرب عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس وعبدوا بعض النجوم

هذا صحيح؛ وقد شهد به القرآن؛ وشهادة القرآن لا يمكن إنكارها على الإطلاق، فهو عند المؤمنين وحي من عند الله، وهو عند الملحدين صورة صحيحة لأحوال العرب في عهد النبوة. وكذلك يستوي المؤمن والملحد في تصديق ما شهد به القرآن

ولكن كيف كانت تلك الوثنية من الوجهة العقلية والروحية؟

وكان الأمل فيه كبيراً فمضت سنوات طويلات وهو لا يصنع شيئاً يستحق الذكر أو يستحق به ما أنفق عليه من مال الدولة وهذه تجربة لا تشجع على المضي في إنشاء المجامع

فأما إنشاء مجمع حكومي للأدب فقد كنت لا أرى رأي صاحب الاقتراح فيه لأني على شعوري بحاجة الأدب إلى التشجيع وحاجة الأدباء إلى التفرغ للانتاج أكره أن يكون للحكومة دخل في ذلك وأخشى أن يجني دخولها في هذا الأمر على الأدب. فما يرجى للأدب خير إلا في ظل الحرية، والحكومات بطبيعتها نزاعة إلى السيطرة والتحكم وتسخير الأقلام لها

كان هذا هو اعتراضي على ما اقترح من إنشاء مجمع أدبي على مثال المجمع اللغوي. أما المسئولون فكانوا ينظرون إلى الأمر من ناحية التجربة المخفقة وما تشير به من ضرورة التريث اتقاء لبعثرة المال في غير غرض صالح، ولست أروي هذا إلا ليعرف المجمع ورأي الحكومة نفسها فيه لعل هذا يستحثه قليلاً إذا كان رأي غير الحكوميين من أمثالي لا يعنيه.

ابراهيم عبد القادر المازني

هل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب صنماً فى صورة أسد ؟

لا يكفى أن يكون الصنم نحت من حجر ليقال إن عبادته أرضية وضيعة ، كما يعبر أحمد أمين ، وإنما يجب أن نعرف لأية غاية روحية أو عقلية عبد بعض العرب صنماً من حجر على صورة أسد ، فقد يكون الغرض من تلك العبادة تمجيد الأنفة والقوة والكبرياء ، وهو غرض نبيل رأينا له أشباهاً فى وثنية الفرس والمصريين واليونان

وقد عبد العرب أسافاً ونائلة ، وهما صنمان لامرأة مليحة ورجل جميل

فهل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب هاتين الصورتين ؟

لقد تحدث الأخباريون بأنهما صورة لرجل وامرأة فجرا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين ، وهنا يتحذلق أحمد أمين فيقول : « ولست أدرى ما حملهم على عبادتهما مع شنيع فعلهما ، وهما إن استحقا شيئاً فالرجم لا العبادة » .

فالقول بأن أسافاً ونائلة فجرا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين هو التأويل الذى اهتدى إليه بعض العوام بعد اندحار الوثنية العربية

أما أهل البصر بأسرار الوثنيات القديمة فيعرفون أن أسافاً ونائلة عند العرب قد يشبهان إيروس وأفروديت عند اليونان ، فيما تمثالان لعبادة الجمال والحب ، وليسا تمثالين لعبادة الفجور والفسق[1]

وعرض الأستاذ لتصور العرب فى الزهرة فلم يدرك ما فيه من جمال ، فالزهرة فى الوثنية العربية كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكباً ، فهل رأى الناس تقديساً للجمال أروع من هذا التقديس ؟

ألا يكفى أن تكون تلك الحسناء نُقِلتْ من الأرض إلى السماء ، ومن عالم الفناء إلى عالم الخلود ؟

قلت لكم إن أسرار الوثنية العربية ضاعت ضيعة أبدية بفضل الدين الحنيف ، ونحن غير آسفين على ضياع تلك الأسرار ولكنا لا نستسيغ القول بأن عقلية العرب كانت أرضية وضيعة ونحن نجهل كيف كانوا يتصورون شؤون الدنيا وأحوال الوجود

والعرب قد اعتذروا عن عبادة الأصنام فقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى » وهذه العبارة القرآنية الكريمة تشهد بأن وثنية العرب كانت تحريفاً لدين صحيح قام على أساس التوحيد .

فمن الخطل أن يقول قائل بأن عبادة الأصنام كانت عبادة أرضية على حين يشهد القرآن بأنها كانت موصولة الأواصر بالمعانى السماوية

ويشهد القرآن أيضاً بأن وثنية العرب كانت لها أحكام متصلة بسكان السماء فقد « جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » ومعنى ذلك أن أوهامهم تجاوزت الأرض إلى السماء

إن العرب فى جاهليتهم قد عرفوا المصريين واليونانيين والفُرس والهنود ، فكيف جاز أن تخلو وثنيتهم من السموّ الذى عُرفتْ به وثنيات أولئك الناس ؟

كيف يكون ذلك والوثنيات ينقل بعضها عن بعض ، كما تنقل بعض الديانات عن بعض ؟

ثم ماذا ؟

ثم يحكم الأستاذ أحمد أمين بأن العرب لم تكن لهم طبيعة فنية وأن ما كان عندهم من تماثيل فجلب من مصر أو من اليونان ، وأن « يغوث » إله مصرى اسمه « بنوت »

ونحب أن نعرف من هم العرب فى ذهن أحمد أمين

يظهر أن للعرب فى ذهنه هم سكان البادية العربية ، وسكان البادية لا يحسنون صناعة التماثيل

والقول بأن العرب فى جاهليتهم لم يكونوا إلا سكان البوادى قولٌ أذاعه المستشرقون الذين يهمهم أن يثبتوا أن الحضارة العربية أُخذت عن مصر وفارس واليونان وليس فيها أثر عربيٌّ أصيل .

والتاريخ الصحيح يقول بغير ذلك ، فالعرب فى الجاهلية كانت لهم حواضر فى الحجاز واليمن والشام والعراق ، وكان لهم فى تلك البلاد آداب وفنون ، ولو عاش قصر غُمدان وقصر الخورنق لاستطعنا أن نعرف كيف فهموا قواعد النحت والتصوير وكيف برعوا فى تسجيل حوادث التاريخ

(١) سمعت أن الأستاذ إسعاف النشاشيبي تحدث من هذه المسألة فى بعض مقالاته ، وقد ضاق الوقت عن مراجعة رأيه فيها ، فما أدرى أتتفقون نحن أم تختلفون .

ولنفرض أن العرب جهلوا النحت والتصوير كل الجهل ، فكيف جاز مع هـذا الفرض أن ينهاهم الإسلام عن النحت والتصوير ؟ وهل ينهى الإسلام عن شيء غير موجود ؟

قل كلاماً غير هذا الكلام يا أستاذ أمين ليصدّق الناس دعواك !

قد يقال : وأين آثار النحت والتصوير في البلاد العربية ؟

ونجيب بأن ذلك كله بدّده الإسلام عامداً متعمداً ليُذهب آثار الشرك والوثنية !

وهل تعرفون كم أثراً فنّياً حطمه المسلمون بمكة يوم الفتح ؟

لقد كانت مصر مملوءة بغرائب التماثيل فحطمها المسلمون ليمحوا شواهد الوثنية الفرعونية . والذين قرأوا التاريخ يذكرون ما فعل الشيخ محمد صائم الدهر : فقد طاف بمصر من الشمال إلى الجنوب ليهشم ما ترك المصريون القدماء من الأصنام والأوثان ، وهو الذي جدع أنف أبي الهول ، ولو استطاع لحوّله إلى رماد

وبعد إسلام أهل مصر بقيت فيهم بقايا من احترام تماثيل الأسود فكانوا يقيمونها فوق قناطر النيل ، وكان الشيخ محمد صائم الدهر يسطو عليها من وقت إلى وقت فيهشم منها ما يستطيع

فإن مررتم على جسر إسماعيل بقصر النيل ورأيتموه محروساً بأسدين فتذكّروا أن تلك الصور الأسدية ليست إلا رجعة إلى ما كان يصنع المسلمون في تزيين قناطر النيل بصور الأسود . وإن زرتم أطلال الكرنك ورأيتم مداخل القصر محروسة بعشرات الأسود فاعرفوا أن هذا من ذاك

* * *

توهّم أحمد أمين أن دين العرب في الجاهلية كان أرضياً وضيعاً ، فكان ذلك التوهم سناداً ركن إليه في تحقير التشبيهات الجاهلية ، فهي عنده لاصقة بالأرض ، وشاهد ذلك أن الجاهليين يشبهون الحيوان بحيوان مثله كتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي أو بالنعامة أو بالأتان

وأحسب أن لو قال هذا الكلام تلميذ بالسنة التوجيهية لسقط في الامتحان أبشع سقوط

فتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي تشبيه مقبول جداً ، وليس مادّياً لاصقاً بالأرض ، لأن وجه الشبه هو السرعة لا الشكل ، والسرعة صورة معنوية

أحمد أمين يريد في الواقع أن يقول إن الناقة شبهت بحيوان يعيش في الأرض لا في السماء ، وآية ذلك أنه عاب على امرئ القيس أن يشبّه الفرس بجلمود صخر حطّه السيل من عَلِ ، وقال : « إن غير العرب شبهوا سرعة الفرس بالبرق »

ذلك كلام أحمد أمين ، وما نفتري عليه

فهل رأيتم كلاماً أغرب من هذا الكلام ؟

أنا أنتظر رأي أساتذة البلاغة بكلية الآداب والأزهر ودار العلوم

هل من الصحيح أن تشبيه سرعة الفرس بالبرق أدق من تشبيه سرعته بجلمود صخر حطه السيل من شواهق الجبال ؟

إن تشبيه سرعة الفرس بالصخرة التي حطها السيل من شاهق لا يقف عند السرعة وإنما يتعداها إلى الثقل . فالفرس عند العدْو ثقيل جداً بحيث لا يملك مراعاة ما قد يعترض الطريق من شجرة أو جدار ، وكذلك لا تملك الصخرة الانحراف من جانب إلى جانب حين تنحطّ من شاهق

أما تشبيه سرعة الفرس بسرعة البرق فهو تشبيه لا يُقبل إلا عند من يرحّب بالأخيلة البهلوانية

وأين الفرس من البرق ؟

إن ما يقطعه البرق في لمحة واحدة قد يعجز عنه الفرس في الأعوام الطوال

والغرض من التشبيه هو تقريب بعض الصور من بعض ، أما الإغراب في التشبيهات والاستعارات فهو سخف مرذول

وأحمد أمين الذي تعجبه الصور السماوية كصورة البرق هو نفسه أحمد أمين الذي عاب على العرب أن يتصوروا مصير الغُميصاء بعد فراق سهيل

« زعموا أن الغميصاء وسُهَيلاً كانا مجتمعين فانحدر سهيل فصار يمانياً ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكتْ لفقد سهيل حتى غمصتْ »

تلك هي الأسطورة العربية التي استسخفها أحمد أمين ،

ولو كان يعرف تاريخ الأساطير لأدرك أن هذه الأسطورة فيها ملامح يونانية ، فالنجم الذى يهوى من موضع إلى موضع هو إلهة عاشقة تنحدر لموعد غرام مع إله معشوق

وكانت الفميصاء المسكينة على موعد مع معشوقها سُهَيل ، ولكنها عجزت عن عبور المجرة فظلت تبكى حتى أصابها التَّمَص

ولو كانت هذه الأسطورة يونانية لا عربية لعدَّها أحمد أمين من غرائب الخيال ، وعدَّ أصحابها من الزاهدين فى الأرض والمفتونين بالسماء !

وأنتِ كذاكِ قد غُيِّرتِ بعدى وكنتِ كأنك الشعرى العبورُ

* * *

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم رأى أحمد أمين أن دين العرب فى الجاهلية قد ظهر أثره فى وصفهم للمرأة ، فهم « لم ينظروا فى المرأة إلا إلى جسمها . لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسى ، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحى . أولعوا بقدها المشوق ، وعيونها الدُّعج ، ووجهها الوردىّ ، وخصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وما شئت من أعضائها وأجزائها . فأما روحها السماوى وجمالها الروحى ، وتعشق روح الشاعر لروحها ، والشعور بأنها مصدر وحيه وإلهامه فشىء لم يستطع إدراكه الشاعر الجاهلى »

ثم يصرح بأن الوقوف عند هذه المعانى فى النظر إلى المرأة شىء مخجل (؟)

أما أنا فأقول بأن نظرة الشاعر الجاهلى إلى المرأة نظرة سليمة تدل على الفحولة والفتوّة ، فجمال المرأة ، جمالها الصحيح ، هو فى نواحيها الحسية ، وليس من العيب أن يقول الرجل إنه يشتهى المرأة شهوة حسية ، وإنما يعيب الرجلَ ألا يملك من المرأة غير أنس الروح بالروح

إن أحمد أمين يحب أن يكون روحاً لطيفاً شفافاً يؤذيه أن يتحدث الناس عن العيون الدُّعج ، والقد المشوق ، والخصر النحيل .

هو يحب أن يضاف إلى رجال الأخلاق !

أما أنا فأبغض أشد البغض أن أضاف إلى هذا الطراز من رجال الأخلاق

أنا أفهم جيداً أن المرأة لا تهمّ الرجل إلا إن كانت أنثى فيها جميع خصائص الأنوثة ، الخصائص التى تُشعر بأنها متاعٌ جميل ، والتى تحمله على أن ينظر إليها نظر الأسد المحصور إلى الرشأ الريب

ولا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحى وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها شهوة حسّيّة ، ومن قال بغير ذلك فهو رجلٌ ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء

إن الأستاذ أحمد أمين يستقبح قول امرئ القيس :

وبيضةِ خِدرٍ لا يرام خباؤها تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

فأين هو من الفحولة التى يهدر بها هذا البيت ؟

قد يقول : وكيف يجوز للرجل الفحل أن يبكى وهو يستعطف المرأة ؟

وأجيب بأن بكاء الرجل أمام معشوقته ليس علامة ضعف ، وإنما هو علامة قوة ، فالدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان ؛ فالثعبان يخدِّر فريسته بالسم ، والعاشق يخدِّر فريسته بالدمع

وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ المازنى فى جريدة السياسة سنة ١٩٣٢ وهو ينقد قول شوقى

« ما الحب إلا التضحية »

فقد عد هذه الكلمة باباً من الضعف ، ومن عمى البصيرة ، لأن الحب فى حقيقة أمره ضربٌ من الأثرة والافتراس

قولوا الحق يا بنى آدم ، فالنفاق خُلُق بغيض

قولوا الحق ، واعترفوا بأن المرأة لا تهم الرجل إلا بوصف أنها مخلوق جميل له عينان دعجاوان ، وجبينٌ مُشرق ، وجيدٌ كجيد الريم ، وقوامٌ كالغصن الرطيب

ولعل أحمد أمين يريد امرأة فيلسوفة لها عرقوب كشهر الصوم فى الطول ، ولها عين كعين الفميصاء تعينه على سهر الليل إلى أن يبزغ « فجر الإسلام » !

والعجيب أن تصدر هذه الأحكام عن رجلٍ يكتب فى الفلسفة

من وقت إلى وقت ، وقد غاب عنه أن فى فلاسفة هذا العصر رجل اسمه فرويد ، وهذا الفيلسوف يرجع أعمال الرجال إلى أصول شهوانية قد تسوق الناس من حيث لا يحتسبون . وما كان فرويد أول من نظر هذه النظرة فقد رأيت لها أصولاً فى مؤلفات الشعراني ، ومن قبل ذلك رأيت لها أطياقاً عند فقهاء الشريعة الإسلامية ، وهم رجال أمعنوا فى درس أسرار الطبائع

فعمن أخذ أحمد أمين هذه الحذلقة فى فهم الأدب النسوى ؟

أغلب الظن أنه نقلها عن الكاتب المتحذلق توفيق الحكيم الذى زعم أن كل عبقرى محروس بروح نسائية تفيض عليه الوحى من وراء الغيب !

وكيف تستطيع المرأة أن تسيطر على الرجل عند اليأس من ظيباتها الحسية ؟

إن الرجل قد يذكر المرأة بالشوق بعد أن تموت ، ولكن ذلك لا يمنع من أن الأخيلة الحسية لها دخل فى تسعير ذلك الشوق

أقول هذا وأنا أعرف أن فى بنى آدم من يوحى إليه الرياء بتكذيب هذه البينات ، ولكن ماذا يهمنى وأنا حريص كل الحرص على الجهر بكلمة الحق ؟

إن الوثنية اليونانية التى يجدها أحمد أمين قد جعلت للآلهة شهوات ولذات ، فكيف يستنكر أن تكون لشعراء الجاهلية شهوات ولذات ؟

إن أفروديت وهى من الآلهة فى الوثنية اليونانية قد صهرها الغيظ حين سمعت بأن فى الأرض إنسانة جميلة تستهوى قلوب الرجال ، وكان من آثار ذلك الغيظ أن قامت بدسائس خبيثة للفتك بتلك الإنسانة التى وصلت أخبارها إلى سكان السماء

الحق كل الحق أن الجمال الحسى هو كل شىء فى المرأة ، وهى تصل إلى الكمال حين يؤيد جمالها الحسى بالجمال الروحى ، كأن تكون على جمالها ذات عقل وأدب وعفاف

وهل تعرفون كيف كان العفاف فضيلة ؟

كان العفاف فضيلة لأنه تمكين للرجل من السيطرة المطلقة على مواقع هواه ، فهو فضيلة لوحظت فيها الأثرة الرجلية

ما هذا الذى أقول ؟

أرانى أهيىء الفرصة لثرثرة من لا يفهمون دقائق علم الأخلاق ، وأنا أحب أن أسلم من ثرثرة أولئك الناس

الذى يهمنى هو النص على أن شعراء الجاهلية صوروا الفطرة السليمة حين جعلوا الأنس بالمرأة الجميلة من النعيم المحسوس ولم يجعلوه من النعيم المعقول

ولو رزقنى الله شيئاً من الصراحة لقلت : إن الشهوات هى فى الأصل من أجل نعم الله على عباده ، وما استنكرها رجال الأخلاق إلا بسبب الإسراف . أما الشهوات فى حد ذاتها فهى من دلائل العافية : والعافية نعمة جزيلة ينعم بها الله على من يشاء

وفضيلة العفاف ، وهى فضيلة نبيلة لا يقام لها وزن إلا حين تصدر عن رجال مزوّدين بحيوية الشهوات ، فطغيان الشهوة ملحوظ عند النظر فى فضيلة العفاف . أما عفاف العاجزين عن الفجور فهو لا يستحق أى ثناء ، ولا يضاف صاحبه إلى أهل الكمال وإن لبس مسوح الرهبان

ويجب أن يكون مفهوماً أن الشهوة الحسية لها صلة بتفوق الرجال فى الميادين العقلية ، فالرجل الآمن من طغيان الشهوات محروم من نعمتين : نعمة القدرة على فهم الجمال ، ونعمة القدرة على مجاهدة الأهواء

وكذلك يصح القول بأن الرجل العاجز لا يستطيع أبداً أن يتسامى إلى منزلة أصحاب الأخلاق

فهل ترونى وصلت إلى إقناعكم بأن أحمد أمين أخطأ حين عاب على شعراء الجاهلية أن يجعلوا المرأة من المتاع الجميل ؟

أنا أعرف أنى أوذى نفسى بهذه التحليلات ، وأعرف أنها قد تصورنى بصورة الرجل الفاتك ، ولكن ماذا أصنع وأنا أريد أن أصدق كل الصدق وأنا أحادث القراء ؟

وهل كُتب على الدراسات الأدبية والفلسفية فى مصر أن تقوم على قواعد الرياء ؟

إسمعوا منى كلمة الحق فى هذه الشؤون قبل أن تسمعوها من باحث يعيش فى لندن أو باريس ، فمن العار أن تعجز مصر النور عما قدر على شرحه الأسلاف فى عصور الظلمات

* * *